إعدادات قصة يا علي يا قمحاوي؟!!!!!

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

في مسلسل "أبو العلا البِشِرِي" على ما أذكر، يأتي المسئول لزيارة مكان تربية الأسماك، فيسارع القائمون على المكان أو المؤسسة – وعلى رأسهم على قمحاوي – بملء الماء الذي يربُّون فيه الأسماك بالأسماك المقليَّة والمشويَّة، وهنا يقول أبو العلا البشري – على ما أذكر – بلهجة ساخرة: سمك مقلي ومشوي يا علي قمحاوي!!!

والعنوان هنا "إعدادات قصة يا علي يا قمحاوي؟!!" وكنت أود أن أجعله "إعدادات قصة مقليَّة ومشويَّة يا...؟!!" وربما "قصة مقلية ومشوية يا ناقد أفندي؟!!" كنتُ في حالة عدم تركيز، ولكنني عندما قرأت كلمة "الإعدادات" في مقالة نقدية – ونقدية هنا تدل على أن من كتبها "ناقد" وليست بالضرورة مرتبطة بالنقد الأدبي، فمن كتبها يقدم نفسه للقارئ على أنه ناقد يقوم بتقديم مجموعة لأحد الكتَّاب – عندما قرأتُ هذه الكلمة شعرتُ بالصدمة، صدمة ناتجة عن استغراب كيف يرمي هذا الناقد بأسماكه الميتة والمقلية

والمشوية في بحر النقد وكيف يرمي ذلك الكاتب بأسماكه الميتة والمقلية والمشوية أيضا في بحر الإبداع الفسيح.

وعندما وجدتُ ذلك "الناقد" يستعمل بعض التعبيرات الإنجليزية في مقالته، خمنتُ أن كلمة "الإعدادات" ترجمة لمصطلح إنجليزي ما. وأشهر استعمال للإعدادات في العربية المعاصرة يوجد في مجال التكنولوجيا كالهواتف المحمولة والكمبيوترات. وفي هذا المجال، الكلمة عبارة عن ترجمة للكلمة الإنجليزية settings، وما علاقة هذه الكلمة بالنقد الأدبي؟ وأحالني هذا السؤال إلى المصطلح الإنجليزي setting بدون حرف الـ s الدال على الجمع، وهذا المصطلح يستخدم في النقد الأدبي الخاص بالسرد للإشارة إلى مكان وزمان أحداث القصة أو الرواية. أي يخص بيئة الحدث بمكانها وزمانها وما يوجد في هذا المكان وهذا الزمان من ملابسات تمثِّل البيئة التي يدور فيها الحدث أو الأحداث، والمصطلح ليس خاصا بالسرد الأدبي، فهو يستخدم أيضا بالإشارة إلى المسرح والسينما والمسلسلات التليفزيونية وما إلى ذلك.

هل يمكننا أن نتحدث عن "الإعدادات" عندما نتحدث عن القصة؟ يقول الناقد في مقالته: "أدوات البنية التقليديَّة تشمل الشخصيَّات والحبكة والإعدادات، وتقنية توثيق الحدث تلزمنا بالإظهار وليس الأخبار". الجملة الأولى هنا تبرز "الإعدادات"

والجملة الثانية ترجمة للمقولة الإنجليزية التي تعتبر من البديهيات في علم أو فن السرد: show, do not tell، ونجدها متكررة عند الكثيرين من الكتاب والنقاد على حد السواء، مثل مقولة أنطون تشيخوف في القرن التاسع عشر:

“Don't tell me the moon is shining; show me the glint of light on broken glass.”

"لا تقل لي إن القمر يلمع، وإنما أَرِني بريق الضوء على الزجاج المكسور".

ومقولة ارنست همنجواي في القرن العشرين:

“Show the readers everything, tell them nothing.”

"اظْهِرْ للقارئ كلَّ شيء، ولا تخبرْه بشيء".

وهي مقولة حق يُراد بها باطل في الكثير من الأحيان، ففي النصوص القصيرة جدا يمكن تطبيق هذه المقولة بكل سهولة وإظهار الشخصية وهي تتصرف أمامنا. ولكن في النصوص الطويلة لا يمكننا أن نقدم كل المشاهد بالتفصيل، فلابد أن يمزج الراوي ما بين عين الكاميرا التي ترصد بعض المشاهد وقلمه الذي

يلخص مشاهد أخرى أو يشير إليها أو يربط بينها وبين مشاهد سابقة.

وهذا يسري في الغالب على القصص والروايات التي تقدم لنا حدثا خارجيا يمكن لأي عين افتراضية أن ترصده بسهولة. ويفترض ذلك وجود نوع من الواقعية الساذجة التي تتبنى نقل الواقع الموجود خارجنا بعين محايدة وبمنظور خارجي، أن أن تقوم الذات/ الراوي بنقل الموضوع/ الشخصيات/ المكان/ الحدث كما هو دون أن ينعكس هذا الموضوع على الذات، وكأن هذا الموضوع له وجوده الموضوعي المستقل عن الذات التي تنقله.

ففي القصص التي تدور في ذهن الراوي أو تستخدم تيار الوعي أو تقدم لنا عقل شخصية في لحظة انفجار، يتحول الإخبار إلى وسيلة سردية ناجحة جدا: كيف أقدم أحداثا متداخلة في ذهن الشخصية وألتزم بالإظهار أو العرض فقط في حين أن الأحداث عبارة عن نهر في حالة تدفق وفيضان؟ وعندما يكون المنظور السردي الذي يستخدم الراوي داخليا، يقوم بتسليط الضوء على الأحداث كما تراها الشخصية أو تلخصها أو تفسرها أو تقدم لنا انطباعاتها عن الأحداث والشخصيات والسلوكيات والتصرفات والمكان والزمان وما إلى ذلك. وفي هذه الحالة، هل يمكننا التمييز بين الإظهار والإخبار؟ لا أظن ذلك. ولذلك يمكننا أن نستخدم مقولة

"الإظهار وليس الإخبار" بالإشارة إلى مقاطع بعينها من النصوص الطويلة (نسبيا)، ويمكننا أن نستعملها بالإشارة إلى النص كله في حالة النصوص القصيرة جدا مثل الومضة القصصية والقصة القصيرة جدا.

ونعود إلى كلمة مهمة جدا في الاقتباس من مقالة الناقد أعلاه، ألا وهي كلمة "توثيق" بالإشارة إلى الحدث القصصي. التوثيق يكون للأنشطة والأحداث التاريخية والأفكار والمعلومات وللصلات والعلاقات، الخ. وهناك نوع من الكتابات والفنون يتسم بالتوثيق مثل الروايات التوثيقية والأفلام الوثائقية. وهنا يمكننا أن نقسِّم هذا التوثيق إلى قسمين: قسم تخييلي صرف ويستخدم عناصر أو وثائق من العالم الخارجي – أي العالم الذي نعيش فيه ويقع خارج العالم المتخيَّل الذي تدور فيه أحداث النص – في إثراء التجربة السردية أو الأدبية أو الفنية، كأن يستخدم الكاتب قصاصات من الصحف التي كانت تصدر في بيئة الحدث المتخيل، سواء أكانت هذه الصحف حقيقية أم متخيَّلة هي الأخرى، ليراوح ما بين الحدث التخييلي الوارد في النص وهذه القصاصات وما تحمله من أخبار وبيانات ومعلومات، وفي الغالب تكون هذه القصاصات التوثيقية متناقضة مع ما يرد في النص، وكأن النص يتهم الواقع ويدينه.

أما القسم الثاني من أقسام التوثيق فهو قسم يغلب عليه التوثيق أو الطابع الوثائقي، مثلما نجدا فيلما عن الحرب العالمية الثانية أو عن ثورة يناير المصرية، ويتم فيه تجميع لقطات خاصة بالحدث التاريخي، وإلى هنا ينتهي الطابع التوثيقي: فهناك صوت راوٍ يعلِّق على المشاهد والأحداث ويصبُّها في نظرة معينة أو اتجاه معين وفقا لتفسير المُنْتِجِ أو المُخْرِجِ أو الجهة التي تقف وراء إنتاج الفيلم الوثائقي، وهذا لا يمثل الواقع وإنما يمثل وجهة نظر معينة لهذا الواقع الذي لم يعد متاحا أمام المتلقي إلا من خلال هذا الفيلم الوثائقي، ولكن هذا المتلقي ذاته قد تكون له رؤية مختلفة للحدث التاريخي الذي يتم توثيقه، وهنا يستطيع أن يكشف الأسس الأيديولوجية والترويجية والتأريخية التي يقوم عليها الفيلم ويستطيع أن يقارن بين ما يعرفه أو عايشه وما يتم تقديمه أمامه في الفيلم.

وفكرة التوثيق ذاتها لاغية لنفسها، بمعنى أن الوثائق بمجرد أن تدخل في إطار قصة أو رواية أو فيلم أو أي نص أدبي تصير جزءا لا يتجزّأ من العالم المتخيَّل وتفقد وظيفتها التأريخية المباشرة وتصير عنصرا خاضعا للتأويل والتخييل من خلال العلاقات التي يتم إنشائها بين هذه الوثائق والأجزاء والعناصر الأخرى من العمل الأدبي أو الفني أو من الفيلم الوثائقي. أي أنها تكتسب قدرا من التخييل الذي يقوم عليه النص وتصطبغ بصبغته وتتلون برؤيته

حتى لو كانت هذه الرؤية تقوم على المقارنة بين يحدث في العالم المتخيَّل وما كان يحدث في الواقع وتم إدخاله في العمل الأدبي من خلال هذا الأسلوب التوثيقي.

ونعود إلى الجملة الواردة في مقالة ذلك الناقد: "وتقنية توثيق الحدث تلزمنا بالإظهار وليس الإخبار". تأتي هذه الجملة في سياق الحديث عما يُفتَرَض أنها ومضات قصصية، أو فلنستخدم المصطلح الأدق الذي يتم استعماله في المقالة، ألا وهو "القصة الومضة". (ونقديا الآن، هناك فرق بين القصة الومضة التي يلصقها أصحابها بفن كتابة القصة زورا وبهتانا لأن القص عندهم مجرد وسيلة لإبراز الحكمة الكامنة في النص، وبين الومضة القصصية التي تعتبر أصغر نوع من أنواع القصة حتى الآن ويلي في الصغر القصةَ القصيرة جدا). والسؤال الآن: كيف نوثِّق الحدث في القصة؟ وهو سؤال استنكاري بالطبع، لأن الفن القصصي والسردي بوجه عام لا يهدف إلى التوثيق لأنه لا يوجد حدث خارجي يتم توثيقه، وإنما الحدث ينبع من النص القصصي ذاته، وقد يأتي ناقد فيما بعد ويقوم بتوثيق القصص التي كتبها كاتب معين بأن يكتب عنها ويبين مكانها وسط فن القص أو السرد: أي أن القصة ذاتها هي الحدث، وقد يقوم أحد بتوثيقه فيما بعد أو لا، ومفهوم التوثيق هنا مفهوم ضبابي ربما ليس له أي معنى.

وهنا ننتقل إلى باقي الجملة، فالناقد يربط بين توثيق الحدث القصصي؟!!! وضرورة الإظهار وليس الإخبار. وحتى فكرة الإظهار ذاتها قد تبدو غير دقيقة، فالترجمة الأدق للمصطلح أو الكلمة الإنجليزية التي يستمد منها ذلك الناقد مقولته الجزافية تعني العرض show: أي أن يقوم الراوي بعرض الموقف دون أن يلخصه من وجهة نظره. كيف يتسق التوثيق مع الإظهار أو العرض؟ سؤال منطقي يستهدف القواعد المتناقضة التي تقوم عليها مقولة ذلك الناقد: فالتوثيق للحدث يقوم به المؤرخ، وكلنا نعرف أن التاريخ وجهات نظر، بمعنى أن ما يكتبه أي مؤرخ عبارة عن رؤيته للحدث ولا يمثل الحدث ذاته. ولكي يقوم المؤرخ بتوثيق الحدث وفقا لمبدأ العرض، عليه ألا يتدخل في شيء وعليه أن ينقل لنا الحدث كما لو كان يحدث أمامنا بين الشخصيات التاريخية، وهذا ليس متاحا بالنسبة للمؤرخ، فقد يشهد المؤرخ جزءا من حدث معاصر له (وحتى هذه الشهادة ستكون شخصية لأنها ستتأثر بمنظور المؤرخ ورؤيته ومصالحه وعلاقته بأصحاب النفوذ والسلطة وما إلى ذلك)، ويقوم بنقل الأجزاء الأخرى عن طريق الوثائق الأخرى التي كتبها أشخاص لهم بدورهم مصالحهم ووجهات نظرهم، أو ينقل من الصحافة المعاصرة، وما يكتب في الصحف أيضا وجهات نظر ولا يمثل الواقع، أو يقوم بالإستعانة بما

كتبه الأدباء والشعراء في نصوصهم الأدبية حول الحدث التاريخي، وكتاباتهم أيضا انطباعات ووجهات نظر. باختصار، لا يوجد مجال لعرض الحقيقة كما هي في حالة هذا التوثيق الذي يستند إلى وثائق تاريخية أو اجتماعية أو صحفية أو إعلامية أو... فكلها تمثل وجهات نظر لأصحابها أو لمن يقفون وراءهم ووراء جهود التوثيق.

ونعود إلى "إعدادات القصة": "أدوات البنية التقليديَّة تشمل الشخصيَّات والحبكة والإعدادات". من الواضح أن الجملة منقولة عن الإنجليزية من خلال أسلوب في الترجمة لا يتحرى الدقة في نقل المفاهيم النقدية الموجودة في النص الأصلي، فأنسب ترجمة موجزة للمصطلح هي "بيئة الحدث" أو "مجتمع الحدث" أو "مكان وزمان الأحداث". وفي السرد القصير جدا قد لا تتضح بيئة الحدث، فلا نعرف أين يدور هذا الحدث أو متى يحدث. وحتى لو تمت الإشارة إلى بيئة الحدث، فستكون عبارة عن إيحاء وجيز قد يدل على أنه مكان مفتوح مثلا: "تحركت أوراق الشجر"، أو وقت نستشفه من الكلام: "صباح الخير" فنعرف أن الوقت هو الصباح إذا كانت هذه التحية تستعمل حرفيا، فهي قد تستخدم أيضا للسخرية أو للفت الانتباه أو للتوبيخ، الخ. وتظل بيئة الحدث" افتراضية، وقد تكون مذكورة في النص أو لا تكون.

واستعمال "الإعدادات" و"التوثيق" و"الإظهار" في المقالة المشار إليها يشير إلى إشكالية في لغة النقد الأدبي المستعملة في عالمنا العربي، فكثيرا ما نجد الناقد يستعمل المصطلحات اعتباطيا دون أن تكون لها علاقة ببعضها البعض أحيانا أو يتم توظيفها بطريقة دقيقة في القراءة النقدية. كما أن سوء الترجمة يتسبب في سوء فهم وفي سوء تطبيق. وكثيرا ما يستعمل النقاد المصطلحات لاستعراض العضلات النقدية فقط ولإيهام القارئ بأن هذا الناقد أو ذاك لديه معرفة واسعة أو مطّلع على ما يدور في الساحة النقدية (وهذه المصطلحات الواردة في المقالة قديمة جدا وعفى عليها الزمن أصلا، الأمر الذي يحقق هدفا مضادا لدى القارئ المطلع، فيدرك أن هذا الناقد خاوٍ وليس لديه ما يقدمه، ويكتفي بانتحال المصطلحات من هنا وهناك دون أن يدرك معناها أو يطور استعمالاتها). وإذا ربطنا بين هذه المصطلحات وما تمت كتابته بالفعل من قِبل ذلك الناقد عند الحديث عن النصوص التي يكتب عنها المقالة، سنجد أن هذه المقدمة ذاتها مجرد استعراض، ولم تتم الإشارة إليها أو استعمالها في الجزء التطبيقي من المقالة.

وسأختم مقالتي هنا ببوست نشرتُه على صفحتي عندما قرأت المقالة الخاصة بالناقد وتولدت لديّ فكرة مقالتي هذه:

الردح له أصول، و"الصياعة أدب مش هَزّ اكتاف"، والنقد مسئولية، والكتابة مسجلة في ميزان كاتبها، تحسب له أو تحسب عليه، حسب السياق، وربنا يوفقنا، والناقد الذكي لا يكتب شيئا يؤخذ عليه، والدعاية التي يقصد بها صاحبها الترويج لنفسه قد تتحول - عند الشخص المستهدف من الترويج - إلى سبَّة في جبينه، وأنا وأنت، واعمل لي "إعدادات قصة" يا جدع، وزعرودة يا فَرَج!!!!